النظام السردي في "رحلتي إلى المغرب" لأبي القاسم سعد الله

د. جميـــلة روقــاب

جامعة الشلف

d.rougab@univhb-chlef.dz

الملخص:

أصبحت الرحلة فنّا من الفنون الشائعة في معظم أقطار العالم، وقد ساعد على ازدهارها اختلاط الشعوب ببعضها البعض، عن طريق وفرة وسهولة المواصلات، وحب الاطلاع والاكتشاف، ومعرفة ما في هذا العالم من عادات وأخلاق وعلوم وثقافة، وغيرها من الأشياء التي يحتاجها الإنسان في هذا العصر.

وينصرف القصد في هذه الورقة البحثية، إلى اقتراح مقاربة منهجية في التعامل مع نصوص سردية تنتمي إلى أدب الرحلات، والتعريف بالآليات اللازمة، والإجراءات الموصلة لفهم النص الرحلي، والإحاطة بخطاطاته السردية المختلفة، وهذا بمراعاة قيمة الرحلة الإخبارية المفيدة، ولأجل ذلك سيتمّ التعريف بأدب الرحلة (الواقعية)، والتطرق للنظام السردي بنوعيه الخارجي والداخلي في (رحلتي إلى المغرب)- للرحالة والمؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله كنموذج للدراسة التطبيق- من خلال الوقوف على أنواع المقامات السردية الموجودة به.

الكلمات المفتاحية:

النص الرحلي، المخطط السردي ، النظام الخارجي، النظام الداخلي، أنماط السرد.

النظام السردي في رحلتي إلى المغرب
لأبي القاسم سعد الله

تمهيد:

لقد عرف العرب منذ زمن سحيق أدب الرحلات، وتركوا فيه آثارا خالدة، فأصبحت فنّا من الفنون الشائعة في جلّ بلدان العالم ومعرفة ما فيها من عادات وأخلاق، إذ يقتضي التأليف فيها ثقافة واسعة تشمل معارف وعلوم متعلقة بالتاريخ، والجغرافية، والفلسفة، والاجتماع، والأدب، والمعرفة بعامة حيث تفرض آليات الكتابة في النصوص الرحليّة الأناقة في تخيّر الألفاظ، وصياغة العبارات، وتنسيق الفصول، لأنّ الإثارة في الرحلة متأتية من جمالية الوصف للواقع، وبلاغة السرد الفني للمغامرة الإنسانية، والعواطف المحركة لجموع أحاسيس البشر، كما أنّها نابعة أيضا من طبيعة الشخصيات التي تبرزها بحيث تبدو للقارئ متوافقة في كثير من نزعاتها، ومتفاوتة في جوانب أخرى.

ينصرف القصد في هذه الورقة البحثية، إلى اقتراح مقاربة منهجية في التعامل مع نصوص سردية تنتمي إلى أدب الرحلات، والتعريف بالآليات اللازمة، والإجراءات الموصلة لفهم النص الرحلي، والإحاطة بخطاطاته السردية الخارجية والداخلية، وهذا بمراعاة قيمة الرحلة الإخبارية المفيدة، ولأجل ذلك سيتمّ التعريف بأدب الرحلة (الواقعية)، والتطرق للنظام السردي بنوعيه الخارجي والداخلي في تحليل نص (رحلتي إلى المغرب) من خلال الوقوف على أنواع المقامات السردية الموجودة به.

وجدير بالذكر أنّ هذه التجربة الرحلية التي كتبتها أنامل المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله [1]، تعتبر محاولة قمينة بالدراسة والتحليل رغم بساطتها وعفوية نسجها، وهذا وفق مع ذكره المؤلف نفسه، حين تحدث عن هدف رحلته إلى المغرب قائلا: وتعقبا لآثار هؤلاء وإضرابهم ذهبت إلى المغرب خلال الصيف الماضي- وهو يقصد صيف يوليو عام 1973م- وقد سجلت أثناء رحلتي كعادتي في كلّ بلد أزوره، يوميات صببت فيها مشاعري ومشاهداتي وقراءاتي ولقاءاتي، صبّا عفويّا، لا تنسيق فيه ولا تفنن...فضلت أن أنسج هذا العرض لأخبار الرحلة نسجا آخر، لا يتقيّد باليومية ولكن بالحادثة نفسها مقتصرا فيه على الأحداث والمناسبات الثقافية، والمتصلة بها،...كما استخلصت هذا العرض بحرية مطلقة، إذ لم أكن مدينا بالولاء لأحد، فلا الجزائر أوفدتني حتّى أشعر بالدين لها، ولا المغرب استدعاني حتّى أتقيّد بدعوته[2].

1- هو من مواليد عام 1930م بإحدى قرى وادي سوف، حصل على شهادة الليسانس والماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية دار العلوم بالقاهرة(مصر)، كما حاز على شهادتي الماجستير والدكتوراه في التاريخ والعلوم السياسية بالولايات المتحدة الأمريكية، كما أنّه يتقن لغات عدة ، له مؤلفات كثيرة معظمها عن تاريخ الجزائر أشهرها: تاريخ الجزائر الثقافي، والحركة الوطنية الجزائرية، وكتب أخرى لا يسعنا ذكرها في هذا المقام.

2 - أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1983م، ص:204-205.

1- تعريف أدب الرحلة:

إنّ الرحلة من فنون الأدب العربي العريقة، فقد بدأ التأليف عنها عند العرب المسلمين الأوائل منذ القرن الثالث للهجرة- التاسع للميلاد- ولكنّهم لم يدوّنوا أخبار رحلاتهم في مؤلفات قائمة بذاتها إلاّ ناذرا، أمّا معظمهم فقد أدمج حديث وأخبار تلك الرحلات فيما ألفوه من كتب التاريخ أو تقويم البلدان[1]، إذ يعدّ النص الرحلي مصدرا هامّا من مصادر كتابة التاريخ، فالرحلات "على عكس جميع المصادر الأخرى تعتمد على الإدراك المباشر للأحداث، ولا تعتمد على النقل والسماع فقط، مما يجعل منها وثيقة حيّة للوقائع التاريخية"[2].

أمّا التأليف للرحلة بمعناه الصحيح، فيمكن القول:"إنّه بدأ في القرن الخامس للهجرة الموافق للحادي عشر للميلاد حيث دوّن كثير من الرحالة المسلمين أخبار أسفارهم، وتنقلاتهم، فذكروا المدن التي زاروها، والمسافات التي اجتازوها والصعوبات التي تغلبوا عليها، ووصفوا البلاد، وقيّدوا مشاهداتهم عن صناعتها وتجارتها، كما أتوا على وصف حياة السكان"[3].

وفي سياق تأصيله لمفهوم أدب الرحلة، أشار سعيد يقطين إلى" أنّ الاشتغال بأحد الطرفين الفعل المادي أو الخطاب، هو الذي أفرز تباين التسميات للنوع المتعلق بالرحلة إلى: الرحلة، أدب الرحلات، الأدب الجغرافي من جهة، وأدّى إلى اختلاف في تحديد طبيعة الخطاب من جهة أخرى، فمنهم من يعتبره تاريخا، وآخر جغرافيا أو آخر سيرة ذاتية، أو قصة"[4].

ثمّ أصبحت الرحلة نوعا أدبيّا قائما بذاته، عندما بدأ تدوينها وكتابتها كنص سردي يحكي هذه التنقلات، وبالتالي انتقلت الرحلة من كونها فعلا متجسدا في الزمان، عبر الانتقال من مكان إلى آخر مع حدوث أفعال، ووقائع إلى الرحلة باعتبارها فعلا محكيّا يختزل تجربة الفعل السابق، ويدوّنه في شكل سرود بضمير المتكلّم[5]، فهي كما وصفها شوقي ضيف من أهمّ فنون الأدب العربي؛ لأنّها خير ردّ على التهمة التي طالما اتّهم بها هذا الأدب وهو قصوره في فنّ القصّة[6].

وقد تجمع الرحلة بدورها بين العلامات اللغوية وغير اللغوية، كالرسم أو الصور الفوتوغرافية التي تتفاعل مع المكتوب بأبعاد جديدة، تجعل من نص الرحلة نصّا متعدّد الأنظمة والصيغ التعبيرية المختلفة[7].

2- النظام السردي في النص الرحلي:

1 - الجوهرة بنت عبد الرحمن المنيع، الرحلات العربية مصدر من مصادر التاريخ، مكتبة الملك فهد للنشر، الرياض، 1431هـ- 2010م، ص:30.

2 - محمد التوزاني، الرحلة الحجازية، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، د.ط، 1998م، ص:4.

3 - زيادة نيقولا، الجغرافيا والرحلات عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط:3، 1986م، ص:15.

4 - سعيد يقطين، السرد العربي مفاهيم وتجليات، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط:1، 2006م، ص:200.

5 - ينظر: شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي التجنيس...آليات الكتابة، خطاب التخييل، دار رؤية، القاهرة، ط:1، 2006م، ص:120.

6 - ينظر: شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف، مصر، ط:4، 1987م، ص:6.

7 - عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن 19م، مستويات السرد، دار السويدي أبو ظبي، دار الأهلية عمان، ط:1، 2006م، ص:168.

يرى أهل الاختصاص أنّ السرد عرض لحدث أو متوالية من الأحداث حقيقية أو خيالية، علما أنّ معيار السردية لا يشترط بدوره الحقيقة والتخييل الذي لا يعني مناقضة الحقيقة، أو مخالفة الواقع؛ بالقدر الذي يعني استعمالا خاصّا للغة كما تلح النظريات الحديثة[1]، فالسرد هو عرض بواسطة اللغة، وبصفة خاصة اللغة المكتوبة[2]، لذا يحوي السرد في النص الرحلي خصائص تميزه عن سرد الخطابات الأدبية الأخرى، ترتبط بكون الرحلة خطابا لفعل منجز من قبل شخصية حقيقية، غالبا ما تكون سارد الرحلة، وكاتبها في الآن نفسه، ولعل من بين أهم هذه الخصائص للنظام السردي في الرحلة مظهر خارجي، يتعلق بكيفية تشكيل معالم الفضاء النصي، ويكون ذا بنية مغلقة تعتبر من أدبيات النص الرحلي التي تمنحه سمة الكتابة التأليفية: كالمقدمة، وعرض محطات السفر، والخاتمة.

ويتموقع هذا النظام في مستويات متوازية من الداخل إلى الخارج؛ حيث تكشف القراءة الأولية فضلا عن طريقة إخراج الرحلة ككتاب، المراحل الكبرى لقصة المسار وكيفية توزعها في الفضاء النصي، وذلك ما يمكن أن نسميه النظام الخارجي، بالإضافة إلى ذلك النظام الذي يكشفه مستوى أعمق من القراءة[3].

3- النظام الخارجي:

أ- المخطط السردي في النص الرحلي:

في الوسع تحديد هذا المخطط بإيراد التفصيلات الإخبارية التي تعرض المحطات السردية لقصة السفر كما يأتي:

- الانطلاق : الاستعداد للسفر، الإعلان عن أغراضه ووسيلته ومكان وزمان الانطلاق، ووجهة الرحلة.
- طريق الذهاب : يتضمن سرد المشاهد والأحداث الواقعة ضمن الفضاء الزمني والمكاني للذهاب، وما تثيره من استطرادات في شتى المواضيع.
- الوصول: تحديد زمنه ومكانه، وسرد مشاهد ومغامرات الرحالة في الفضاء المرتحل إليه.
- العودة :وتحوي المراحل السابقة في الاتجاه المعاكس.
- الانطلاق : الاستعداد للمغادرة وطقوس العودة كالوداع ووسيلة العودة، وتحديد زمن ومكان الانطلاق.
- طريق الإياب: رصد مشاهدات ومغامرات طريق العودة، والتي تقع بين مجالين زمنيين ومكانيين محددين، سواء اختلف طريق الذهاب عن طريق الإياب أو لم يختلف، وفي الحالة الثانية يستغنى عن تكرار وصف الفضاءات والمعالم.
- الوصول:تحديد مكان وزمن الوصول، ووصف حالة الرحالة بعد السفر، وطقوس الوصول من دعاء وملاقاة الأحباب والوطن[4].

1- تزفيتان تودوروف، الشعرية، ترجمة: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط:2، 1990م، ص:46.

2- سعيد يقطين، الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط:1، 1997م، ص:55.

3 - حميد الحمداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط:3، 2000م، ص:62.

4- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن 19م، مستويات السرد ، ص:18-19.

يحسن التذكير في هذا الصدد أنّ أبا القاسم سعد الله كانت له رحلات أخرى نحو جهات متعددة من المشرق حيث قام بها بمبادرة منه، ورحلات أخرى كتبها عن شخصيات تاريخية لرحالة زارت أرض الوطن وغيره من الأوطان سبقت الإشارة إليها في كتاب هذه الرحلة.

ب- المخطط السردي في نص "رحلتي إلى المغرب":

استخدم السارد (أبو القاسم سعد الله) في سرد رحلته إلى المغرب "أسلوب اليوميات أو المذكرات، مع عدم التركيز على دقائق الأحداث، والإيجاز في العرض لكثير من الحالات؛ بحجة عدم تخصيصه للرحلة كتابا مستقلاّ، إذ ضمنها في مؤلّف متعدد الموضوعات ذات الصلة برحلاته وأعماله الأدبية الأخرى، مع ذلك لا تخلو الرحلة من المعلومات التاريخية والأدبية، ومواقف شخصية معبّرة عن آراء ومشاعر سيطرت على الرحالة إزاء رؤيته لبعض المشاهد "[1].

مما هو قمين بالذكر، أنّ المخطط السردي– المشار إليه سابقا- معرض بديهيّا للخرق سواء على مستوى ترتيب محطاته، أو مضمونه، ذلك لكونه أنموذجا عامّا ومنطقيّا أيضا لكلّ حكاية سفر؛ لكنه مخطط سردي ضروري لكلّ نصّ رحلي لقياس مدى انزياحه، "باعتباره تمثيلا في درجة الصفر، إذ لا يمكن مناقشة كيفية السرد دون افتراض مادّة ثابتة يمكن تقديمها بطرق متنوعة"[2].

ويتجلّى المخطط السردي لحكاية السفر في رحلتي إلى المغرب، نوعا ما مطابقا للنموذج السابق في تمفصلاته الكبرى، حيث تتوزع المراحل السردية على الفضاء النصي للرحلة بشكل يجعل نهاية الرحلة الأولى هي بداية الرحلة الثانية، وقد نبّه السارد إلى ذلك عندما قال:" وقد استغرقت الرحلة على طائرة البوينغ التونسية بين مطار الدار البيضاء بالجزائر ومطار النواصر بالمغرب، ساعة وربعا...وكانت الساعة تشير إلى السادسة والربع عندما أعلنت المضيفة التونسية بصوت رخيم أنّ الطائرة ستبدأ في الهبوط لمطار النواصر، وشعرت عندئذ أنّ الطائرة كانت حمامة سلام، ووحدة بين الأقطار الثلاثة؛ فقد تجمّع فيها الجزائريون والمغاربة والتونسيون، واندمجت فيها طبائعهم المتكاملة، لطافة التونسي، وإنسانية الجزائري، وشهامة المغربي"[3].

ولعل الفضاء هو المكان أو الأمكنة التي تقع فيها المواقف والأحداث المعروفة، وعلى الرغم من إمكانية السرد دون الإحالة إلى فضاء الرحلة-(القصة)- وفضاء مقتضيات السرد، أو العلاقات القائمة بينها؛ فإنّ الفضاء يمكنه أن يؤدي دورا هامّا في السرد، ويمكن للملامح الفضائية أو للصلات القائمة بينها أن تكون دالة، وتؤدي وظيفة موضوعاتية وبنيوية [4]، أو تكون أداة تشخيص لنص الرحلة، وفق التصوّر التالي:

1- ينظر: سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطوّر والبنية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د.ط، 2009م، ص:98.

2- ينظر: ولاس مارتن، نظريات السرد الحديثة، ترجمة: حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، د.ط، 1998م، ص:138-139.

3- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص:193.

4 - جيرالد برنس، المصطلح السردي، ترجمة: عابد خزندار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط:1، 2003م، ص:196.

(تونس)----الجزائر----الدار البيضاء (المغرب)-----الرباط----الدار البيضاء----الرباط----سلا.
محطة الانطلاق—الذهاب----العبور----------الوصول-------(التجوال)----------

على ما يبدو أنّ البرنامج السردي كان منزاحا في هذا النص الرّحلي، فقد تمّ انزياحه عن مراحله المرجعية، المتمثلة في المخطط الذي أشرنا إليه سلفا عبر دمج المحطات بعضها ببعض وحذف بعضها الآخر؛ إذ أدمجت محطة الانطلاق وجزء من محطة الذهاب ومحطة الوصول الأوّل في وحدة سردية ونصية واحدة، فمطار الدار البيضاء بالجزائر كان بمثابة محطة وصول من رحلة سابقة إلى تونس، ومحطة انطلاق وذهاب إلى المغرب.

كما احتلت محطة التجوال عبر فضاء المرتحل إليه نهاية النص الرّحلي، بدلا من موقعها بين طرفي الذهاب والإياب، فحذفت محطة الوصول إلى موطن الرحالة(أبي القاسم سعد الله)، وبهذا الترتيب فإنّ الخطاب السردي للرحلة إلى المغرب ينتهي بالتجوال في مدنها(الدار البيضاء- الرباط- سلا) بشكل منفتح لا تغلقه العودة إلى موطن الرحالة (الجزائر) كنقطة وصول، حيث يتوقف السرد عند محطة مكتبة الخزانة- أين كتب الرحلات والتاريخ والآداب الموجودة هناك- وهي محطة فضاء المرتحل إليه.

وعطفا على ما سبق، نرى أنّ الرحلة المنجزة من قبل السارد تنزاح زمانيّا ومكانيّا، فعلى مستوى المحطات المكانية ليست هناك محطة لطريق الإياب من المغرب إلى الجزائر، وقبلها محطة الوصول إلى الجزائر من تونس؛ بل بقي الرحالة على مستوى الخطاب متجوّلا بين أرجاء المغرب، لينتهي السرد بطريقة مفتوحة دون الإشارة بعبارة صريحة أو صورة ضمنية إلى العودة التي يسلم القارئ بحتميتها، لكونها من المعطيات المرجعية الواقعية لأي رحلة.

لقد سعى السارد بطريقة عفوية إبراز عنصر المفاجأة- لمفاجأة أو ما يصطلح عليه بـ: (Surprise)، هو الانفعال الحاصل عندما تحبط التوقعات المتعلقة بما سوف يحدث، بواسطة ما يحدث بالفعل، ويعدّ توليد المفاجأة ذا أثر عاى نحو خاص عندما يكون مؤسسا جيّدا على ما حدث من قبل، على الرغم من أنّ ما يحدث بالفعل يخيّب توقعاتنا، ويشكل التفاعل بين المفاجأة والتشويق(Suspense) أحد مظاهر الحبكة الجيّدة[1]- التي صنعت نوعا من الانزياح على مستوى القصة، وهذا الانزياح أو الانحراف يخبرنا به أحيانا عند وصوله إلى الدار البيضاء، ثمّ انتقاله إلى الرباط عبر سيارة أجرة كوسيلة نقل، وبالتالي تمديد محطة الوصول فجأة في هذه الرحلة، كذلك عنصر المفاجأة في محطة التجوال بين الرباط والعودة ثانية إلى الدار البيضاء، وبعدها الرحلة إلى الرباط مرة ثانية هي الأخرى عبر نفس وسيلة النقل، لكن هذه المرة رفقة أحد الأصدقاء الذين تعرف عليهم، ثم العودة مجدّدا إلى زيارة الخزانة العامة المكان الحافل بالشخصيات العربية العلمية المثقفة، وحتّى الأجنبية، مما ساعد السارد على الانتقال إلى مدينة قريبة من الرباط على متن الحافلة رفقة شخصية كانت نزيلة معه في نفس الفندق، ليرحل مع ذلك الرجل إلى محطة جديدة قادتهما إلى مدينة "سلا"، ليعود إلى الرباط من جديد دون أيّ تصريح منه.

1 - جيرالد برنس، قاموس السرديات، ترجمة: السيد إمام، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ط:1، 2003م، ص:194.

وإذا كان التقطع بين الوحدات السردية الكبرى يبرر كون بنية الرحلة تستدعي الانتقال عبر القفز من مكان إلى آخر، ويتطلب إعادة الربط من خلال قراءة مضامين المحطات وتفاصيلها السردية[1]، ذلك لأنّ الكتابة التوثيقية تحيل القارئ إلى كيفية التوضيب من جديد، وهذا ما يضفي على نصّ الرحلة سمة الانفتاح[2]، والتي تؤهله لإعادة هندسته هندسة جديدة، حيث تبرز هذه السمة خصوصا في الفصول التي تمثل محطة التجوال.

وعلى مستوى الخطاب الموازي لخطاب السارد، والمتمثل في إشارات المؤلف التي احتلت حيّزا من حجم الفضاء النصي للرحلة، تمّ فيه إخبار القارئ بالإجراءات التي تمّ بموجبها توضيب نص الرحلة إلى المغرب، وإعادة هندسته بكيفية تختلف عن تلك التي أنجزها الرحالة زمن الرحلة، ويشي خطاب السارد بتلك التعديلات، ويبررها فيقول: "وعند عودتي إلى الجزائر نظرت في هذه اليوميات، فوجدت فيها ما يصلح للنشر الآن، وما لا يصلح إلاّ بعد انقضاء جيل"[3].

4- النظام الداخلي:

يرتبط النظام الداخلي للسرد بمقامين رئيسيين هما حكاية انتقال السارد المتموقعة في إحداثيات الزمان والمكان وحكايات المحتوى المفتوحة على تيمات متعددة حسب إحالات المشاهدات والمؤطَرة بحكاية السفر، إذ ليس في الوسع معرفة مظاهر النظام الداخلي للسرد، وكذا طبيعة الترابطات بين الوحدات الصغرى في النص الرحلي باعتباره خطابا، دون معرفة مختلف المقامات السردية التي تعنى بوضعية القصة المرتبطة بمنتجها من ناحية، وبزمن إنتاجها من ناحية أخرى، حيث "يكون التحديد الزمني الرئيسي للمقام السردي هو موقعه النسبي من القصة"[4].

أ- أنواع المقامات السردية:

إنّ أنواع المقامات السردية هي وحدها المسؤولة عن توليد الأنماط السردية، تلك التي تأخذ تسميتها انطلاقا من علاقة أحداث القصة بالخطاب الناقل لها، وهي أربعة:

- السرد اللاحق:
- السرد السابق(المتنبئ)
- السرد المتزامن
- السرد المقحم (المتداخل)[5].

1- ينظر: أبو علي أحمد بن الحسين المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، تحقيق، محمد نايف الديلمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:1، 2006م، ص:71.

2- ينظر: محمد معتصم: النص السردي العربي، الصيغ والمقومات، دار توبقال، الدار البيضاء، ط:1، 2004م، ص:104.

3- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص:204.

4- جيرار جنيت، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، ترجمة: محمد معتصم عبد الجليل وعمر حلي، منشورات الاختلاف، الأردن، ط:3، 2003م، ص:230.

5- جيرار جنينيت، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، ص:231.

فالمراد بالسرد اللاحق(Postériori narration) عندما يقوم الرحالة على سبيل التمثيل بحكاية أحداث وقعت في الماضي، إنّه سرد يعقب زمنيّا المواقف والأحداث المروية، سرد تابع (Subséquent narration)، ويعدّ السرد اللاحق من الخصائص المميزة للسرد التقليدي أو الكلاسيكي، أمّا السرد السابق أو كما يصطلح عليه الدارسين بالسرد التنبؤي(Prédictive narrative) ، يتمّ عندما يكون فيه السرد مقدما على المسرود زمنيّا، فهو حكي يتميز بسرد متقدّم يسبق المواقف والأحداث المروية؛ حيث يقوم السارد على سرد أحداث لم تقع بعد؛ أي ما يمكن أن يتنبأ به في المستقبل، أمّا بخصوص السرد المتزامن (المتواقت) فهو ما يسمىّ بـ(Simultaneous narrating)، معناه السرد الذي يقصّ الحاضر للفعل والحدث؛ لأنّه سرد معاصر آني للمواقف والأحداث المحكية، وعن النمط الرابع ألا وهو السرد المقحم أو كما يسمونه بالسرد المتداخل، فقد سميّ بهذا الاسم نظرا لتداخل السرد والقصة فيه، وبالتالي يكون السرد فيه متعدّد المقامات[1].

ب- أنواع المقامات السردية في رحلتي إلى المغرب:

تكشف القراءة الأولية لرحلة أبي القاسم سعد الله تحقق هذا المفهوم عبر مختلف المقامات للخطاب السردي، فعلى سبيل المثال نلفي اليوميات والأحداث التي وقعت للسارد قد خضعت لإعادة نظم متنها عبر نص جديد جعلها أقرب للرحلة المتخيلة منها إلى نص تاريخي توثيقي، ومن ثمّ يتضح أنّ الجدل الذي دار حول سردية التاريخ لا يتوافق مع خصوصيات هذه المذكرات اليومية المبثوثة في نص "رحلتي إلى المغرب"، والتي تعتبر مقاما سرديا يتعالق مع سرد قصة السفر، ولا مجال للتذكير بأنّ التخييل هاهنا لا يعني مناقضة الحقيقة، أو مخالفة الواقع، بالقدر الذي يعني استعمال اللغة، لذا سنحاول في هذا المقام اقتفاء أثر مسار الرحلة لتحديد أنماط السرد، من خلال تخيّر بعض الجمل والأساليب التعبيرية التي تدلّ على كلّ نوع من هذه الأنواع السردية الأربعة كما جاءت في نص الرحلة:

أ- بعض النماذج عن السرد اللاحق:

يتردد الرحالة الجزائري على زيارة الخزانة العامة للإطلاع على ما تجود به مكتبتها من وثائق ومخطوطات، وكتب قيمة، و يسرد في لقاءه عددا من الشخصيات المغربية، وغيرها من البلدان العربية التي تفاجأ لتصرفها عند رؤيتها للمرة الأولى في حياته، إذ قال:" فتقدّم منّي ذات يوم، وسلّم وشكا إليّ أنّه كان قد أرسل مصحفا ومخطوطة عن تاريخ الجزائر القديم إلى أحد المسؤولين الجزائريين، ولم يصله رد"[2].

أو عند رؤيته رئيس قسم المخطوطات؛ حينها قال:" وقد سبق لي أن عرفت الأستاذ إبراهيم الكتاني في مؤتمر كتّاب المغرب العربي الذي انعقد بطرابلس بليبيا سنة 1969م، ولذلك لم يشعر أيّ منّا بالغربة عن الآخر"[3].

---

1 - ينظر: جيرالد برنس، قاموس السرديات، ترجمة: السيد إمام، ص:155-180 .

2- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص:213.

3- المصدر نفسه، ص:209.

ب– بعض النماذج عن السرد السابق:

كحديثه عن فكرة تعريب الجامعة والتعليم وسياسة تطبيقها بالمغرب العربي خلال تلك الفترة، عندما جاء في نص الرحلة: ولعلي لو تماديت في ذكر ما دار في هذا الاجتماع، لسال القلم مدرارا[1]، أو عندما قال: وقد سمعت وأنا في المغرب أنّ كلية الآداب بجامعة محمد الخامس ستعرّب تماما ابتداء من هذا العام (1973-1974)، وسمعت أيضا أنّه تحقيقا لهذا الهدف، توجهت بعثة مغربية إلى المشرق لجلب الأساتذة[2]، أذكر بهذا الصدد أنّ بعض العناصر في جامعة الجزائر كانت تعرقل دخول النخبة المغربية (والتونسية أيضا) إلى الجامعة خوف انتشار ((عدوى)) التعريب الجامعي إلى القطرين الشقيقين[3]، ثم يستدرك السارد برأيه الشخصي حول سياسة التعريب، فيشير بالقول: ولكن هذه الخطوة المغربية في ميدان التعريب، ستكون بدون شكّ دعما لتجربة التعريب الجزائرية، التي مازال بعضهم يحاول محاصرتها والتضييق عليها[4].

ج– بعض النماذج عن السرد المتزامن:

سبق وأن أشرنا للسرد المتزامن على أنّه السرد المعاصر للمواقف والأحداث المحكية ، وفي هذا النص الرحلي يتجوّل السارد بين شوارع والأماكن العامة والأسواق الشعبية رفقة صديقه المغربي الذي لم يتعرّف إليه بالخزانة، بل عند باب المكتبة العامة للمدينة، وهو يتأهب للخروج منها بعد أن ألقى نظرة فاحصة على ما فيها من مؤلفات مشرقية ومغربية جديدة، حتّى قال عنه:" ولم يفارقني الدكتور كريم في هذه المرّة إلاّ وقد أنهكني التعب عقليّا من عمل النهار، وبدنيا من جولان الليل، ولكن خدماته لي لم تنته عند ذلك الحد"[5]، والمقصود بذلك أنّ رفقته ستدوم زمن تواجده إلى غاية نهاية الرحلة.

د– بعض النماذج عن السرد المقحم:

اشتمل هذا المتن الرحلي على بعض ملامح السرد المتداخل أو المقحم، نحو زيارته لبيت الدكتور عباس الجراري، الذي كان قد سأل عنه السارد عند وصوله إلى الرباط، والمؤسف في الأمر أنّ الجراري كان مع أسرته ووالده في "إفران" لقضاء جزء من عطلة الصيف كما ذكر في نص الرحلة.

ولكن المثير للتنبه، هو تلك الحادثة التي جاز تسميتها بالقصة التي مكنته من التقرب من الأستاذ عباس الجراري الذي لم يكن يعرفه، حتى تمكن هذا الأخير من استضافته ببيته، ويتأتىّ ذلك حين قال: وتناولنا الغذاء بمشاركة حرمه التي تشغل محامية، وأطفاله الثلاثة (محمد، ألوف، وعلا)، وكانت حرمه عندئذ تحامي في محاكمة

1 – المصدر نفسه، ص:228.

2 – المصدر نفسه، ص:231.

3 – المصدر نفسه،الصفحة نفسها.

4 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

5 – المصدر نفسه، ص:215.

القنيطرة، بينما كانت تجري محاكمة أخرى في الدار البيضاء[1]، فمصاحبته لزيارة مدينة الدار البيضاء، والتعرف على والده، وقبله على وجوه أدبية وفكرية لها وزنها في المغرب.

5- خاتمة:

لقد شكلت رحلتي إلى المغرب جزءا من النشاط الدائم للرحالة الجزائري (أبو القاسم سعد الله) نحو كسب العلم والسعي لكشف الحضارات العربية العريقة الأخرى، وهكذا عرضت الرحلة النثرية الجزائرية الحديثة موضوعات اجتماعية، تاريخية، وسياسية، وحتّى ثقافية متنوّعة، وردت في شكل ملاحظات وإشارات، وعلى ظواهر وحالات اجتماعية ارتبطت بأفعال الناس وبأخلاقهم وعاداتهم، وسلوكاتهم، كما تعلقت أيضا بالأحداث التاريخية والسياسية التي كانت لها آثار إيجابية أو سلبية على المجتمع العربي والمغربي برمته، أو على بعض أفراده، وغالبا ما كانت ملاحظات السارد تخصّ الشخصيات- المغربية أو العربية الأخرى- التي لقيها أو تعامل معها عن قصد أو عفو الخاطر، أو حتّى سمع عنها أثناء رحلته فعكست بذلك مواقفه وآراءه الشخصية وانطباعاته الخاصة.

المصادر والمراجع:

1- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1983م.

2- أبو علي أحمد بن الحسين المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، تحقيق، محمد نايف الديلمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:1، 2006م.

3- تزفيتان تودوروف، الشعرية، ترجمة: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط:2، 1990م.

4- الجوهرة بنت عبد الرحمن المنيع، الرحلات العربية مصدر من مصادر التاريخ، مكتبة الملك فهد للنشر، الرياض، 1431هـ- 2010م.

5- جيرار جنيت، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، ترجمة: محمد معتصم عبد الجليل وعمر حلي، منشورات الاختلاف، الأردن، ط:3، 2003م.

6- جيرالد برنس، المصطلح السردي، ترجمة: عابد خزندار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط:1، 2003م.

7-جيرالد برنس، قاموس السرديات، ترجمة: السيدإمام، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ط:1، 2003م.

8- حليفي شعيب، الرحلة في الأدب العربي التجنيس...آليات الكتابة، خطاب التخييل، دار رؤية، القاهرة، ط:1، 2006م.

9- حميد الحمداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط:3، 2000م.

10- زيادة نيقولا، الجغرافيا والرحلات عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط:3، 1986م.

11- سعيد يقطين، السرد العربي مفاهيم وتجليات، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط:1، 2006م.

1 - المصدر نفسه، ص:218.

12- سعيد يقطين، الكلام والخبر مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط:1، 1997م.
13- سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتطوّر والبنية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د.ط، 2009م.
14- شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف، مصر، ط:4، 1987م.
15- عبد الرحيم مودن، الرحلة المغربية في القرن 19م، مستويات السرد، دار السويدي أبو ظبي، دار الأهلية عمان، ط:1، 2006م.
16- محمد التوزاني، الرحلة الحجازية، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، د.ط، 1998م.
17- محمد معتصم: النص السردي العربي، الصيغ والمقومات، دار توبقال، الدار البيضاء، ط:1، 2004م.
18- ولاس مارتن، نظريات السرد الحديثة، ترجمة: حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، د.ط، 1998م.